

صور من حياة الناجين

للمصف الثالث المتوسط

الفصل الدراسي الثاني

●
●
●
قررت وزارة المعارف تدرّس
هذا الكتاب وطبعه على نفقتها



المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
التطوير التربوي

صَوْرٌ مِنْ حَيَاةِ التَّابِعِينَ

للصف الثالث المتوسط
الفصل الدراسي الثاني

تأليف

د. عبد الرحمن رأفت الباشا

الكتاب الثاني

يوزع مجاناً ولا يُباع

طبعة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م



الصفحة	المحتوى	تسلسل
٧ الحَسَنُ البَصْرِي	١
٢٥ شُرَيْحُ القَاضِي	٢
٣٩ مُحَمَّدُ بنُ سِيرِين	٣
٥٢ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ	٤
٧٤ رَجَاءُ بنُ حَيَوَةَ	٥
٩٣ عَامِرُ بنُ شُرَاحِيلِ الشَّعْبِيِّ	٦

الحَسَنُ البَصْرِيُّ

«كَيْفَ يَضِلُّ قَوْمٌ فِيهِمْ مِثْلُ
الحَسَنِ البَصْرِيِّ؟»
«مَسْلَمَةُ بنِ عَبْدِ المَلِكِ»

جاء البَشِيرُ يُبَشِّرُ زَوْجَ النَّبِيِّ أُمَّ سَلَمَةَ بِأَنَّ مَوْلَاتَهَا ^(١) «خَيْرَةَ» قد وَضَعَتْ
حَمْلَهَا وولَدَتْ غُلامًا .

فغمَرَتِ الفَرَحَةَ فَوادَّ أُمَّ المومنينِ رِضوانُ اللهِ عليها، وطفَحَ البِشْرُ ^(٢)
على مُحَبَّاتِها ^(٣) النَّبيلِ الوَقورِ .

وبادَرَتْ فَأرْسَلَتْ رَسولًا لِيَحْمِلَ إليها الوالِدَةَ ومَوْلودَها، لِتَقْضِيَ قَترَةَ
النِّقاسِ في بَيْتِها .

فقد كانت «خَيْرَةُ» أَثِيرَةً ^(٤) لَدَى أُمَّ سَلَمَةَ حَبِيبَةً إلى قَلْبِها . . .
وكان بِها لَهْفَةٌ وتَشوُّقٌ لرؤْيَةِ وِلِيدِها البِكرِ . . .

* * *

وما هُوَ إلا قَليلٌ حَتَّى جَاءت «خَيْرَةُ» تَحْمِلُ طِفْلَها على يَدَيْها . . .

(١) مولاتها : أمتها .

(٢) طفح البشر : فاض السرور .

(٣) المحببات : الوجه .

(٤) أثيرة : عزيزة مكرمة .

دَرَجٌ ^(١) الْحَسَنُ بْنُ يَسَارٍ (الذي عُرِفَ فيما بَعُدُ بِالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ) فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . . .

وَرُبِّي فِي حِجْرِ زَوْجَةٍ مِنْ زَوَاجِ النَّبِيِّ هِيَ هِنْدُ بِنْتُ سُهَيْلِ الْمَعْرُوفَةِ بِأُمِّ سَلَمَةَ .

وَأُمُّ سَلَمَةَ - إِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ - كَانَتْ مِنْ أَكْمَلِ نِسَاءِ الْعَرَبِ عَقْلاً، وَأَوْفَرِهِنَّ ^(٢) فَضْلاً، وَأَشَدَّهُنَّ حَزْماً .

كَمَا كَانَتْ مِنْ أَوْسَعِ زَوَاجِ الرَّسُولِ ﷺ عِلْماً وَأَكْثَرِهِنَّ رِوَايَةً عَنْهُ . . .

حَيْثُ رَوَتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ثَلَاثِمِائَةً وَسَبْعَةً وَثَمَانِينَ حَدِيثاً . . .

وَكَانَتْ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ النِّسَاءِ الْقَلِيلَاتِ التَّادِرَاتِ اللَّوَاتِي يَكْتَبْنَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . . .

وَلَمْ تَقِفْ صِلَةَ الصَّبِيِّ الْمَحْظُوظِ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ . . .

وَإِنَّمَا امْتَدَّتْ إِلَى أُبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ . . .

فكَثِيراً مَا كَانَتْ « خَيْرَةً » أُمُّ الْحَسَنِ تَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَاجَاتِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَانَ الطِّفْلُ الرَّضِيعُ يَبْكِي مِنْ جُوعِهِ، وَيَشْتَدُّ بِكَأَوْهِ

(١) درج : نَسْأً وَتَرْمَعُ .

(٢) أَوْفَرِهِنَّ : أَكْثَرِهِنَّ .

ظَلَّ الْحَسَنُ يَتَقَلَّبُ فِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْعَبْقَةِ ^(١) بِطُيُوبِ التُّبُوَّةِ الْمُتَأَلِّقَةِ ^(٢)
بِسَنَاهَا . . .

وَيَتَهَلُّ مِنْ تِلْكَ السَّمَوَاتِ الْعَذْبَةِ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا يُسُوثُ أُمَّهَاتِ
الْمُؤْمِنِينَ . . .

وَيَتَلَمَّذُ عَلَى أَيْدِي كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . . .

حَيْثُ رَوَى عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَجَابِرِ
ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِمْ وَغَيْرِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

لَكِنَّهُ أَوْلَعَ أَكْثَرَ مَا أَوْلَعَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ .

فَقَدْ رَاعَاهُ مِنْهُ صَلَابَتُهُ فِي دِينِهِ، وَإِحْسَانُهُ لِعِبَادَتِهِ، وَرَهَادَتُهُ بِزِينَةِ الدُّنْيَا
وَرُخْرُفِهَا . . .

وَخَلَبَهُ ^(٣) مِنْهُ بَيَانُهُ الْمَشْرِقُ، وَحِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ وَأَقْوَالُهُ الْجَامِعَةُ،
وَعِظَاتُهُ الَّتِي تَهْزُ الْقُلُوبَ هَرَأً .

فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ فِي التَّقَى وَالْعِبَادَةِ . . .

وَنَسَجَ عَلَى مِنْوَالِهِ ^(٤) فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ . . .

(١) العبقة : المطرة .

(٢) المتألقة : المتلصقة .

(٣) خلبه : فتنه وسحره .

(٤) نسج هل منواله : سار على طريقته .

وَالْتَمُوا حَوْلَهُ يُصِيخُونَ ^(١) إِلَى مَوَاعِظِهِ الَّتِي تَسْتَلِينُ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ،
وَتَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ الْعَاصِيَةَ .

وَيَعُونَ ^(٢) حِكْمَتَهُ الَّتِي تَخْلِبُ الْأَلْبَابَ ...

وَيَتَأَسُّونَ بِسِيرَتِهِ الَّتِي كَانَتْ أَطْيَبَ مِنْ نَشْرِ الْمِسْكِ ^(٣) ...

* * *

ولقد انتشر أمر الحسن البصري في البلاد وفشا ذكره ^(٤) بين
العباد ...

فَجَعَلَ الْخُلَفَاءُ وَالْأَمْرَاءُ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهُ وَيَتَسَقَطُونَ ^(٥) أَخْبَارَهُ ...

حَدَّثَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ ^(٦) قَالَ :

لَقِيتُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ^(٧) فِي الْحَبْرَةِ ^(٨) فَقَالَ لِي :

أَخْبِرْنِي يَا خَالِدُ عَنْ حَسَنِ الْبَصْرَةِ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ مَا لَا
يَعْرِفُ سِوَاكَ .

(١) يصيخون : ينصتون .

(٢) يعون حكمته : يحفظون حكمته ويكذبونها .

(٣) نشر المسك : ربح المسك .

(٤) فشا ذكره : شاع ذكره وانتشر .

(٥) يتسقطون أخباره : يتبعون أخباره .

(٦) خالد بن صفوان : من فضحاء العرب جالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وعاش حتى أدرك السفاح
المباضي وحظي عنده .

(٧) مسلمة بن عبد الملك : أميراً قائداً من أبطال بني أمية ، غزا القسطنطينية ، وبني فيها مسجد مسلمة .

(٨) بلدة قديمة في العراق على بعد ثلاثة أميال من الكوفة اندثرت ولم يبق لها وجود اليوم .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَجَّاجَ بَنَى لِنَفْسِهِ بِنَاءً فِي وَاسِطَ^(١) . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ نَادَى
فِي النَّاسِ أَنْ يَخْرُجُوا لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِ وَالِدُعَاءِ لَهُ بِالْبَرَكَاتِ . . .

فَلَمْ يَشَأْ الْحَسَنُ أَنْ يُفَوِّتَ عَلَى نَفْسِهِ فُرْصَةَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ هَذِهِ . . .
فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لِيُعِظَهُمْ وَيَذَكِّرَهُمْ وَيُرْهِدَهُمْ بَعْرِضِ الدُّنْيَا، وَيُرَغِّبَهُمْ
بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . . .

وَلَمَّا بَلَغَ الْمَكَانَ، وَنَظَرَ إِلَى جُمُوعِ النَّاسِ وَهِيَ تَطُوفُ بِالْقَصْرِ
الْمُنِيفِ مَأْخُودَةً بِرَوْعَةِ بِنَائِهِ، مَذْهُوشَةً بِسَعَةِ أَرْجَائِهِ^(٢) مَشْدُودَةً إِلَى بَرَاعَةِ
زَخَارِفِهِ . . . وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيْبًا، وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَهُ :

لَقَدْ نَظَرْنَا فِيمَا ابْتَنَى أَحَبُّنَا الْأَخْبِيثِينَ فَوَجَدْنَا أَنَّ فِرْعَوْنَ شَيْدًا أَعْظَمَ
مِمَّا شَيْدًا، وَبَنَى أَعْلَى مِمَّا بَنَى . . .

ثُمَّ أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَأَتَى عَلَى مَا بَنَى^(٣) وَشَيْدًا . . .

لَيْتَ الْحَجَّاجَ يَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ قَدْ مَقَّتُوهُ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ قَدْ
عَرُّوهُ . . .

وَمَضَى يَتَدَفَّقُ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ^(٤) حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَحَدُ السَّامِعِينَ مِنْ
نِقْمَةِ الْحَجَّاجِ فَقَالَ لَهُ :

حَسْبُكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ . . . حَسْبُكَ .

(١) واسط : مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة .

(٢) أرجائه : نواحيه .

(٣) أتى على ما بنى : دمَّر ما بنى .

(٤) على هذا المنوال : على هذا الأسلوب .

فَلَمَّا رَأَى الْحَسَنُ السِّيفَ وَالنَّطْعَ وَالْجَلَادَ حَرَكَ شَفْتَيْهِ . . .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ، وَعَلَيْهِ جَلَالُ الْمُؤْمِنِ وَعِزَّةُ الْمُسْلِمِ، وَوَقَارُ
الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ.

فَلَمَّا رَأَهُ الْحَجَّاجُ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ هَابَهُ أَشَدَّ الْهَيْبَةِ وَقَالَ لَهُ :
هَاهُنَا يَا أَبَا سَعِيدٍ . . . هَاهُنَا . . .

ثُمَّ مَا زَالَ يُوسِّعُ لَهُ وَيَقُولُ :
هَاهُنَا . . . وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ وَاسْتِغْرَابٍ حَتَّى أَجْلَسَهُ عَلَى
فِرَاشِهِ .

وَلَمَّا أَخَذَ الْحَسَنُ مَجْلِسَهُ التَّقَتَ إِلَيْهِ الْحَجَّاجُ وَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ
بَعْضِ أُمُورِ الدِّينِ، وَالْحَسَنُ يُجِيبُهُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِجَنَانٍ ثَابِتٍ، وَبَيَانٍ
سَاجِرٍ، وَعِلْمٍ وَاسِعٍ .
فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ :

أَنْتَ سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ يَا أَبَا سَعِيدٍ .

ثُمَّ دَعَا بِغَالِيَةِ^(١) وَطَيَّبَ لَهُ بِهَا لِحْيَتَهُ وَوَدَّعَهُ .

وَلَمَّا خَرَجَ الْحَسَنُ مِنْ عِنْدِهِ تَبِعَهُ حَاجِبٌ^(٢) الْحَجَّاجِ وَقَالَ لَهُ :

يَا أَبَا سَعِيدٍ، لَقَدْ دَعَاكَ الْحَجَّاجُ لِغَيْرِ مَا فَعَلَ بِكَ وَإِنِّي رَأَيْتُكَ عِنْدَمَا
أَقْبَلْتَ، وَرَأَيْتَ السِّيفَ وَالنَّطْعَ قَدْ حَرَكَتْ شَفَتَيْكَ فَمَاذَا قُلْتَ ؟

(١) الغالية : أنواع من الطيب تُنرَّجُ وَيُطَيَّبُ بِهَا .

(٢) حاجِبُ الْحَجَّاجِ : بَرَّابُ الْحَجَّاجِ .

وقد ولّاني ما ترؤن من أمر العراق ثم زادني فولاني فارس .
وهو يُرسل إليّ أحياناً كُتُبا يأمرني فيها بإنفاذ ما لا أطمئنُ إليّ
عدالته .

فهل تجدان لي في متابعتي إياه وإنفاذ أوامره مخرجاً في الدين ؟
فأجاب الشَّعْبِيُّ جواباً فيه ملاحظة للخليفة، ومسايرة للوالي . . .
والحسن ساكت . . .

فالتفت عمر بن هبيرة إلى الحسن وقال :
وما تقول أنت يا أبا سعيد ؟

فقال : يا بن هبيرة، خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله . . .
واعلم أن الله جل وعز يمتنع^(١) من يزيد، وأن يزيد لا يمتنع من
الله . . .

يا بن هبيرة، إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما
أمره، فيزيلك عن سربك هذا، وينقلك من سعة قصرِكَ إلى ضيق
قبرِكَ . . .

حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عمك الذي خالفت فيه رب
يزيد . . .

يا بن هبيرة إنك إن تك مع الله تعالى وفي طاعته بكفك^(٢) بائقة يزيد بن
عبد الملك في الدنيا والآخرة .

(١) يمتنع من يزيد : يحملك من يزيد .

(٢) بكفك بائقة يزيد : يمتنع عن أذى يزيد .

وكان من أجل ما ورثه للأجيال رقائقه^(١) التي ظلت على الأيام ربيعاً
للقلوب . . .

ومواعظه التي هزت وما زالت تهز الأفتدة، وتستدرُّ الشؤون^(٢) وتدُلُّ
التائِهين على الله، وتنبه الغارِبين الغافِلين إلى حَقِيقَةِ الدُّنيا، وحالِ النَّاسِ
مَعها .

من ذلك قَوْلُهُ لِسائِلٍ سألَهُ عن الدُّنيا وحالِها :

- تَسألُنِي عن الدُّنيا والآخِرَةِ !!

إِنَّ مَثَلَ الدُّنيا والآخِرَةِ كَمَثَلِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ . . .

مَتَى اِرْزُدْتِ مِنْ أَحَدِهِما قُرْباً اِرْزُدْتِ مِنَ الآخِرِ بُعْداً .

وتقولُ لي صِفْ لي هذه الدَّارَ !!

فماذا أَصِفُ لَكَ من دارِ أَوْلِئِها عِناءً^(٣) ، وآخِرُها فِناءً . . .

وفي حلالِها حِسابٌ ، وفي حَرَامِها عِقابٌ . . .

من اسْتَعْنَى فيها فُتِنَ ، ومَنْ افْتَقَرَ فيها حَزِنَ . . .

ومِنْ ذلك أيضاً قَوْلُهُ لِآخِرِ سألَهُ عن حالِها وحالِ النَّاسِ :

وَيُحِنا ماذا فَعَلنا بِأَنفُسِنا !!؟

(١) الرقائق : المواظ والوصايا سميت كذلك لرفتها أو لأنها ترفق القلوب .

(٢) الشؤون : جمع شأن وهي العروق التي تجري منها الدموع .

(٣) عِناء : تعب ونصب .

أَيْنَ مِسْكِينِكَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْكَ ؟

أَيْنَ مَا وَصَّاكَ بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟

لَيْتَكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَدَدٌ . . .

وَأَنَّهُ كُلَّمَا غَابَتْ عَنْكَ شَمْسُ يَوْمٍ نَقَصَ شَيْءٌ مِنْ عَدَدِكَ . . .

وَمَضَى بَعْضُكَ مَعَهُ . . .

* * *

وَفِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ مِنْ غُرَّةِ رَجَبٍ ^(١) سَنَةَ مِائَةٍ وَعَشْرٍ لَبَّى الْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ نِدَاءَ رَبِّهِ . . . فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ وَشَاعَ فِيهِمْ نَعْيُهُ ارْتَجَّتِ الْبَصْرَةُ
لِمَوْتِهِ رَجًا . . .

فَغُسِّلَ وَكُفِّنَ وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ فِي الْجَامِعِ الَّذِي قَضَى فِي رِحَابِهِ
جُلَّ حَيَاتِهِ عَالِمًا وَمُعَلِّمًا، ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ .

ثُمَّ تَبَعَ النَّاسُ جَمِيعًا جَنَازَتَهُ . . .

فَلَمْ تُقَمْ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي جَامِعِ الْبَصْرَةِ . . . لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
فِيهَا أَحَدٌ يُقِيمُ الصَّلَاةَ . . .

وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّ الصَّلَاةَ عَطَّلَتْ فِي جَامِعِ الْبَصْرَةِ مُنْذُ ابْتِنَاهُ
الْمُسْلِمُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . . .

(١) غرة رجب : الغرة من كل شيء أوله وطلعته ، وغرة رجب : أول رجب .

شُرَيْحُ الْقَاضِي

«قيل لِشُرَيْحٍ : بَأَيِّ شَيْءٍ أَصَبْتَ
هَذَا الْعِلْمَ فَقَالَ : بِمَذَاكِرَةِ
الْعُلَمَاءِ : أَخَذْتُ مِنْهُمْ وَأَعْطَيْتُهُمْ» .
«سُفْيَانُ الْأَوْسِيُّ»

ابْتِغَاءَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَسًا مِنْ رَجُلٍ
مِنَ الْأَعْرَابِ وَنَقَدَهُ ^(١) ثَمَنَهُ ، ثُمَّ امْتَطَى ^(٢) صَهْوَتَهُ وَمَضَى بِهِ .
لَكِنَّهُ مَا كَادَ يَبْتَعِدُ بِالْفَرَسِ طَوِيلًا حَتَّى ظَهَرَ فِيهِ عَطَبٌ عَاقَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ
الْجَزْيِ ، فَانْتَشَى ^(٣) بِهِ عَائِدًا مِنْ حَيْثُ انْطَلَقَ ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ :
خُذْ فَرَسَكَ فَإِنَّهُ مَعْطُوبٌ .
فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أَخُذُهُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَقَدْ بَغْتُهُ مِنْكَ سَلِيمًا
صَحِيحًا .

فَقَالَ عُمَرُ : اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَكَمًا .
فَقَالَ الرَّجُلُ : يَحْكُمُ بَيْنَنَا شُرَيْحُ بْنُ الْحَارِثِ الْكِنْدِيُّ .
فَقَالَ عُمَرُ : رَضِيْتُ بِهِ .

* * *

(١) نَقَدَهُ ثَمَنَهُ : دَفَعَ لَهُ ثَمَنَهُ .

(٢) امْتَطَى صَهْوَتَهُ : رَكَبَ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَالصَّهْوَةُ مَقْعَدُ الْفَارِسِ مِنَ الْفَرَسِ .

(٣) انْتَشَى : انْعَطَفَ .

فَهُوَ رَجُلٌ يَمَنِّيُّ الْمَوْطِنِ كِنْدِيٌّ ^(١) الْعَشِيرَةَ، قَضَى شَطْرًا غَيْرَ يَسِيرٍ
مِنْ حَيَاتِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . . .

فَلَمَّا أَشْرَقَتِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِنُورِ الْهِدَايَةِ، وَتَفَدَّتْ أَشِعَّةُ الْإِسْلَامِ
إِلَى أَرْضِ الْيَمَنِ، كَانَ شُرَيْحٌ مِنْ أَوَائِلِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،
الْمُسْتَجِبِينَ لِذَعْوَةِ الْهُدَى وَالْحَقِّ . . .

وَكَانَ عَارِفُو فَضْلِهِ وَمُقَدِّرُو شَمَائِلِهِ ^(٢) وَمَرَآيَاهُ يَأْسُونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْأَسَى
وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ أُتِيحَ ^(٣) لَهُ أَنْ يَقْدَعَ عَلَى الْمَدِينَةِ مُبَكَّرًا لِيَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَبْلَ أَنْ يَلْحَقَ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى وَلِيَنْهَلَ مِنْ مَوَارِدِهِ ^(٤) الصَّافِيَةِ الْمُصَفَّاءِ مُبَاشَرَةً
لَا بِالْوَسَاطَةِ . . .

وَلَكِنِّي يَحْظِي بِشَرْفِ الصُّحْبَةِ بَعْدَ أَنْ حَظِيَ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ . . .
وَبِذَلِكَ يَجْمَعُ الْخَيْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ . . .
وَلَكِنَّ مَا قُدِّرَ كَانَ . . .

* * *

وَلَمْ يَكُنِ الْفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، مُتَعَجَّلًا حِينَ عَهْدَ بِمَنْصِبٍ مِنْ
مَنَاصِبِ الْقَضَاءِ الْكُبْرَى لِرَجُلٍ مِنَ التَّابِعِينَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَمَاءَ

(١) كندى العشيرة : منسوب إلى كندة (بكسر الكاف وسكون النون) وهي قبيلة عربية عظيمة ظهر منها كثير من
المحدثين والعلماء .

(٢) شمائله : أخلاقه ومزاياه .

(٣) أتيج له : قدر له .

(٤) ينهل من موارده : يرتوي من ينابيعه .

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ افْتَقَدَ دِرْعًا لَهُ كَانَتْ أَثِيرَةً^(١)
عِنْدَهُ، غَالِيَةً عَلَيْهِ ...

ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ وَجَدَهَا فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ^(٢) الدُّمَّةِ يَبِيعُهَا فِي سَوْقِ
الْكُوفَةِ ...

فَلَمَّا رَأَاهَا عَرَفَهَا وَقَالَ :

هَذِهِ دِرْعِي سَقَطَتْ عَنْ جَمَلٍ لِي فِي لَيْلَةٍ كَذَا ... فِي مَكَانٍ كَذَا ...

فَقَالَ الدَّمِيُّ :

بَلْ هِيَ دِرْعِي وَفِي يَدِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

فَقَالَ عَلِيٌّ :

إِنَّمَا هِيَ دِرْعِي لَمْ أَبْعَثْ مِنْ أَحَدٍ، وَلَمْ أَهْبِهَا لِأَحَدٍ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْكَ ...

فَقَالَ الدَّمِيُّ : بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ...

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَنْصَفْتَ؛ فَهَلُمَّ إِلَيْهِ^(٣) ...

ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَى شُرَيْحِ الْقَاضِي، فَلَمَّا صَارَا عِنْدَهُ فِي مَجْلِسِ
الْقَضَاءِ، قَالَ شُرَيْحٌ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا تَقُولُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟

فَقَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ دِرْعِي هَذِهِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ، وَقَدْ سَقَطَتْ مِنِّي فِي لَيْلَةٍ

كَذَا وَفِي مَكَانٍ كَذَا، وَهِيَ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ لَا يَبِيعُ وَلَا هَبَّةً .

(١) أثيرة عنده : عزيزة عليه .

(٢) أهل الدمة من يعيشون في ديار الإسلام من النصارى واليهود .

(٣) فهلم إلي : فبادر إلي .

عِنْدَ ذَلِكَ التَّفَتَّ عَلَيَّ إِلَى الدُّمِيِّ وَقَالَ :

خُذْهَا ، فَلَيْسَ عِنْدِي شَاهِدٌ غَيْرُهُمَا ...

فَقَالَ الدُّمِيُّ :

وَلِكِنِّي أَشْهَدُ بِأَنَّ الدَّرْعَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...

ثُمَّ أَرَدَفَ ^(١) قَائِلًا : يَا اللَّهُ ...

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاضِيَنِي أَمَامَ قَاضِيهِ !!

وَقَاضِيهِ يَقْضِي لِي عَلَيْهِ !!

أَشْهَدُ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي يَأْمُرُ بِهَذَا لَحَقٌّ ...

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ...

إِغْلَمَ أَيُّهَا الْقَاضِي أَنَّ الدَّرْعَ دِرْعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنِّي اتَّبَعْتُ الْجَيْشَ

وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى صِفِّينَ ^(٢) ، فَسَقَطَتِ الدَّرْعُ عَنِ جَمَلِهِ الْأَوْزُقِيِّ ^(٣) فَأَخَذْتُهَا .

فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَمَّا وَإِنَّكَ قَدْ أَسَلَمْتَ فَإِنِّي وَهَبْتُهَا لَكَ .

وَوَهَبْتُ لَكَ مَعَهَا هَذَا الْفَرَسَ أَيْضًا ...

وَلَمْ يَمْضِ عَلَيَّ هَذَا الْحَادِثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى شَوَّهَدَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ

(١) أَرَدَفَ : أَضَافَ .

(٢) صِفِّينَ : مَوْضِعٌ بِقُرْبِ الرَّقَّةِ مِنْ سُورِيَّةٍ وَقَعَتْ فِيهِ وَقْعَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

(٣) الْأَوْزُقِيُّ : الَّذِي لَوْنُهُ لَوْنُ الرَّمَادِ .

وَقَدْ كَفَلَ وَلَدٌ لِشَرِيحٍ رَجُلًا فَقَبِلَ كِفَالَتَهُ، فَمَا كَانَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا أَنْ فَرَّ
هَارِبًا مِنْ يَدِ الْقَضَاءِ .

فَسَجَنَ شَرِيحٌ وَلَدَهُ بِالرَّجُلِ الْفَارِّ . . .

وَكَانَ يَنْقُلُ لَهُ طَعَامَهُ بِيَدِهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى السَّجْنِ .

وَكَانَتْ الشُّكُوكُ تُسَاوِرُ^(١) شَرِيحًا - أحياناً - فِي بَعْضِ الشُّهُودِ . . .

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ سَبِيلًا لِدَفْعِ شَهَادَتِهِمْ لِمَا تَوَافَرَ لَهُمْ مِنْ شُرُوطِ
الْعَدَالَةِ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْلُوا^(٢) بِشَهَادَتِهِمْ :

اسْمَعُوا مِنِّي هَذَا كَمَا أَنَّ اللَّهَ .

إِنَّمَا يَقْضِي عَلَيَّ هَذَا الرَّجُلِ أَنْتُمْ . . .

وَإِنِّي لِأَتَّقِيَ النَّارَ بِكُمْ، وَأَنْتُمْ بَاتِّقَائِهَا أَوْلَى . . .

وَإِنَّ فِي وُسْعِكُمْ الْآنَ أَنْ تَدْعُوا الشَّهَادَةَ وَتَمْضُوا؛ فَإِذَا أَصْرُوا عَلَيَّ
الشَّهَادَةَ التَّقَتَ إِلَى الَّذِي يَشْهَدُونَ لَهُ وَقَالَ :

اعْلَمْ يَا هَذَا أَنِّي أَقْضِي لَكَ بِشَهَادَتِهِمْ . . .

وَإِنِّي لِأَرَى أَنَّكَ ظَالِمٌ . . .

وَلِكِنِّي لَسْتُ أَقْضِي بِالظَّنِّ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِشَهَادَةِ الشُّهُودِ . . .

وَإِنَّ قَضَائِي مَا يُحِلُّ لَكَ شَيْئًا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ . . .

* * *

(١) تُسَاوِرُ شَرِيحًا : تَلِمُ بِشَرِيحٍ وَتَسْتَوِي عَلَى فِكْرِهِ .

(٢) يَدْلُونَ بِشَهَادَتِهِمْ : يَحْضِرُونَ شَهَادَتَهُمْ وَيُعْلِنُونَهَا .

ثم قال :

انظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ - فَوَاللَّهِ مَا أَبْصَرْتُ
بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً . . .

ولكنِّي ما أَخْبَرْتُ أَحَدًا ذَلِكَ إِلَّا أَنْتَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ .

أما سَمِعْتَ قَوْلَ الْعَبْدِ ^(١) الصَّالِحِ :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنَ إِلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

فاجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَشْكَالَكَ ^(٣) وَمَحْزَنَكَ عِنْدَ كُلِّ نَائِبَةٍ ^(٤) تَنْوِيكَ . . .

فإنه أَكْرَمُ مَسْئُولٍ وَأَقْرَبُ مَدْعُوٍ . . .

وقد رَأَى ذاتَ يَوْمٍ رَجُلًا يَسْأَلُ آخِرَ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ :

يَا بْنَ أَخِي مَنْ سَأَلَ إِنْسَانًا حَاجَةً فَقَدَ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِيِّ .

فإن قَضَاهَا لَهُ الْمَسْئُولُ فَقَدَ اسْتَعْبَدَهُ بِهَا . . .

وإن رَدَّ عَنْهَا رَجَعَ كِلَاهُمَا ذَلِيلًا . . .

هَذَا بِذُلِّ الْبُخْلِ . . .

وَذَاكَ بِذُلِّ الرَّدِّ . . .

فإذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ .

وإذا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

(١) الْعَبْدُ الصَّالِحُ : هو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام .

(٢) سورة يوسف : ٨٦ .

(٣) مَشْكَالَكَ وَمَحْزَنَكَ : من تشكو إليه وتحزن لديه .

(٤) نَائِبَةٍ : مصيبة .

فقال : لا .

فدعا بِقِرطاس^(١) وَقَلَمٍ ، وَكَتَبَ إِلَى مُؤَدِّبِهِ يَقُولُ :

نَرَكُ الصَّلَاةَ لِأَكْلِ^(٢) يَسْعَى لَهَا

يَبْغِي الْهَرَّاشَ^(٣) مَعَ الْغُورَةِ الرَّجْسِ^(٤)
فَلْيَأْتِيَنَّكَ غُدُوَّةٌ بِصَحِيفَةٍ

كُنِبَتْ لَهُ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ^(٥)
فَإِذَا أَتَاكَ فَدَاوِهِ بِمَلَامَةٍ

أَوْ عِظُهُ مَوْعِظَةَ الْأَدِيبِ الْكَيْسِ^(٦)
وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدْرَةٍ^(٧)

وَإِذَا بَلَغْتَ ثَلَاثَةَ لَيْلٍ فَاجِسِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَتَنْفُسُهُ

مَعَ مَا يُجَرِّعُنِي أَعَزُّ الْأَنْفُسِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْفَارُوقِ فَقَدْ زَانَ مَفْرِقَ^(٨) الْقَضَاءِ فِي الْإِسْلَامِ بِلُؤْلُؤَةٍ
كَرِيمَةٍ الْأَعْرَاقِ^(٩)

(١) دعا بقِرطاس : طلب ورقاً .

(٢) الأكلب : الكلاب .

(٣) الهراش : مهاوذة بعض الكلاب على بعض .

(٤) الرجس : ممارسو الأعمال القبيحة .

(٥) صحيفة المتلمس : يضرب بها المثل في الشؤم ، وكان مكتوباً فيها : « إذا جاءك حامل هذه الصحيفة فاقتله » .

(٦) الكيس : الذكي اللبق .

(٧) الدرّة : ما يُضْرَبُ بِهِ .

(٨) المفروق : مفرد وجمعه مفارق ومفارق القضاء وجره الواضحة .

(٩) الأعراق : الأصول .

مَحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ

«مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَفْقَهَ فِي وَرَعِهِ وَلَا
أَوْزَعَ فِي فِقْهِهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ
سِيرِينَ».

«مورق العجلى»

عَزَمَ سِيرِينُ عَلَى أَنْ يَسْتَكْمِلَ ^(١) شَطْرَ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ حَرَّرَ أَنَسُ بْنُ
مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَقَبَتَهُ، وَبَعْدَ أَنْ غَدَتْ حِرْفَتُهُ تُدْرُ ^(٢) عَلَيْهِ الرَّبِيعَ الْوَفِيرَ
وَالْخَيْرَ الْكَثِيرَ . . . فَقَدْ كَانَ نَحَّاسًا مَاهِرًا يُتَّقِنُ صِنَاعَةَ الْقُدُورِ .
وَقَدْ وَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى مَوْلَاةٍ ^(٣) لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ تُدْعَى صَفِيَّةً لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ .

* * *

كَانَتْ صَفِيَّةٌ جَارِيَةً فِي بَوَاكِرِ الشَّبَابِ وَضِيئَةً الْوَجْهِ، ذَكِيَّةَ الْفُؤَادِ،
كَرِيمَةَ الشَّمَائِلِ، نَبِيلَةَ الْخَصَائِلِ، مُحَبِّبَةً إِلَى كُلِّ مَنْ عَرَفَهَا مِنْ نِسَاءِ
الْمَدِينَةِ .

لَا فَرَّقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الشَّوَابِ ^(٤) اللَّوَاتِي تَرْبِطُهُنَّ بِهَا وَشَائِحِ ^(٥) الْيَفَاعَةِ،

(١) يستكمل شطر دينه : يتزوج .

(٢) تدرك عليه : تفيض عليه .

(٣) مولاة : أمة .

(٤) الشَّوَابُ : جمع شابة وهي العجراة في مقابل العسر .

(٥) وشائج اليفاعة : روابط القرعة .

ولقد اُرْبَطَتْ اَسْبَابُهُ بِاَسْبَابِي مُنْذُ سَبَاهِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي مَعْرَكَةِ (عَيْنِ التَّمْرِ)^(١) مع اُرْبَعِينَ غُلَامًا، وجاء بهم اِلَى الْمَدِينَةِ . . .

فَكَانَ (سِيرِينُ) مِنْ نَصِيبِي . . .

وَكُنْتُ مَحْظُوظًا بِهِ . . .

وَأَفَقَ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَيَّ تَزْوِيجَ صَفِيَّةَ مِنْ سِيرِينِ .

وَعَزَمَ عَلَيَّ أَنْ يَبْرَهَا كَمَا يَبْرُ الْأَبُ الشَّفِيقُ ابْنَتَهُ الْأَيْسَرَةَ^(٢) فَأَقَامَ

لِإِمْلَاقِهَا^(٣) حَفْلًا قَلَّمَا ظَفِرَتْ بِمِثْلِهِ فِتَاءٌ مِنْ فِتْيَاتِ الْمَدِينَةِ . . .

فَقَدْ شَهِدَ إِمْلَاقَهَا طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ كِرَامِ الصَّحَابَةِ .

وَكَانَ فِيهِمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ بَدْرِيًّا^(٤) . . .

وَدَعَا لَهَا كَاتِبٌ وَخِي رَسُولِ اللهِ ﷺ أَبِي بَنُ كَعْبٍ . . .

وَأَمَّنَ عَلَيَّ دُعَائِهِ الْحَاضِرُونَ . . .

وَطَيَّبْتُهَا وَزَيَّنْتُهَا ثَلَاثًا مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ

رَفَّتْ اِلَى زَوْجِهَا . . .

وَقَدْ كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الزَّوْاجِ الْمُبَارِكِ أَنْ رُزِقَ الْأَبْوَانِ غُلَامًا، غَدَا

بَعْدَ عِقْدَيْنِ^(٥) مِنَ الزَّمَانِ عَلِمَا مِنْ أَعْلَامِ التَّابِعِينَ، وَرَجُلًا مِنْ أَفْدَاذِ

الْمُسْلِمِينَ هُوَ : مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينِ .

(١) عين التمر : بلدة ظري الكوفة انتسحها خالد بن الوليد في خلافة الصديق .

(٢) الأيسرة : المفضلة المحببة .

(٣) إملاقها : تزويجها .

(٤) البدري : من شهد يوم بدر مع رسول الله ﷺ .

(٥) المقعد : عشر سنوات .

كانت البصرة يومئذ مدينةً شابةً بكرًا . . .
فقد اختطها المسلمون في أواخرِ خلافةِ الفاروقِ رضيَ اللهُ عنه .
وكانتُ تُمثَلُ جُلًّا^(١) خصائصِ الأمةِ الإسلاميَّةِ في ذلكِ العَصْرِ .
فهي قاعدَةٌ عسْكَرِيَّةٌ لجيُوشِ المسلمينَ الغازِيَةِ في سَبِيلِ اللهِ . . .
وهي مَرَكزٌ من مراكزِ التَّعْلِيمِ والتَّوَجِيهِ للدَّاخِلِينَ في دينِ اللهِ من أَهْلِ
العِراقِ وفارسِ . . .

وهي صُورَةٌ للمُجْتَمَعِ الإسلاميِّ الجادِّ الذي يَعْمَلُ لِذُنُوبِهِ كَأَنَّهُ يَعِيشُ
أَبَدًا، وَيَعْمَلُ لِأَخْرَاهُ كَأَنَّهُ يَمُوتُ غَدًا . . .

* * *

سَلَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ فِي حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي الْبَصْرَةِ طَرِيقَيْنِ
مُتَوَازِيَيْنِ :

فَجَعَلَ شَطْرًا مِنْ يَوْمِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ . . .
وَشَطْرًا آخَرَ لِلْكَسْبِ وَالتَّجَارَةِ .

فَكَانَ إِذَا انْبَلَجَ الْفَجْرُ وَأَشْرَقَتِ الدُّنْيَا بِنُورِ رَبِّهَا غَدَا إِلَى مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ
يُعَلِّمُ وَيَتَعَلَّمُ .

حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ مَضَى مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى السُّوقِ يَبِيعُ
وَيَشْتَرِي . . .

(١) جُلًّا : أكثر .

فكان الناس إذا رأوه في السوق - وهم غارقون غافلون - انتبهوا؛ فذكروا
الله عز وجل، وهللوا وكبروا . . .

* * *

وكانت سيرته العملية خير مُرشد للناس . . . فما عرض له أمران في
تجارته إلا أخذ بأوثقهما في دينه . . .

ولو كانت فيه خسارة تُصيب دُنياه . .

وكانت دقة فهمه لأسرار الدين، وصحة نظريته إلى ما يحل وما لا
يحل تدفعه أحياناً إلى بعض المواقف التي تبدو غريبة لعيون الناس . . .

من ذلك أن رجلاً ادعى عليه - كذباً - أن له في ذمته درهمين . . .

فأبى أن يُعطيه إياهما . . .

فقال له الرجل : أتخلف؟

وهو يظن أنه لا يخلف من أجل درهمين .

فقال : نعم، وحلف له .

فقال له الناس :

يا أبا بكر، أتخلف من أجل درهمين؟!!

وأنت، الذي تركت أمس أربعين ألف درهم في شيء رابك^(١) مما لا

يرتاب فيه أحد غيرك . . .

(١) رابك : شككت فيه .

وَاطْلُبْ مَا قُدِّرَ لَكَ مِنْ طَرِيقٍ حَلَالٍ . . . وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ تَطَلَّبْتَهُ مِنْ غَيْرِ
حِلِّهِ لَمْ تُصِبْ ^(١) أَكْثَرَ مِمَّا قُدِّرَ لَكَ . . .

ولقد كانت لمحمد بن سيرين مع ولاية بني أمية مواقف مشهودة مشهورة
صدع ^(٢) فيها بكلمة الحق، وأخلص النصيح لله ولرسوله ولأئمة
المسلمين.

من ذلك أن عمر بن هبيرة الفراري رجل بني أمية الكبير واليه
على العراقيين بعث إليه يدعوهم إلى زيارته، فمضى إليه ومعه ابن أخيه .
فلما قدم عليه رحب به الوالي، وأكرم وفادته ورفع مجلسه، وسأله عن
كثير من شؤون الدين والدنيا ثم قال له :

كَيْفَ تَرَكْتَ أَهْلَ مِصْرِكَ ^(٣) يَا أَبَا بَكْرٍ ؟

فَقَالَ : تَرَكْتُهُمْ وَالظُّلْمَ فِيهِمْ فَايِسَ ^(٤) وَأَنْتَ عَنْهُمْ لَاهٍ . . .

فَعَمَّرَهُ ابْنُ أَخِيهِ بِمَنْكِبِهِ . . .

فالتفت إليه وقال : إِنَّكَ لَسْتَ الَّذِي تُسألُ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا أَنَا الَّذِي
أُسألُ . . .

وإنها لشهادة . . .

﴿ وَمَنْ يَكُفِّرْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ ﴾ ^(٥)

(١) لم تصب : لم تنل .

(٢) صدع : جهر .

(٣) أهل مصر : أهل بلدك .

(٤) فائس : متشور .

(٥) البقرة : ٢٨٣ .

إِنَّ الزَّيْتِ كُلَّهُ كَانَ فِي الْمَعْصَرَةِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّ النَّجَاسَةَ لَيْسَتْ
خَاصَّةً بِهَذَا الزَّقِّ دُونَ سِوَاهُ . . .

وَإِنِّي إِذَا رَكَدْتُهُ لِلْبَائِعِ بِالْعَيْبِ^(١) فَرُبَّمَا بَاعَهُ لِلنَّاسِ . . .
ثُمَّ أَرَأَقَهُ كُلَّهُ . . .

وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ كَانَ يَشْكُو فِيهِ مِنْ خَسَارَةٍ كَبِيرَةٍ حَلَّتْ بِهِ . . .
فَرَكِبَهُ الدَّيْنُ، وَطَالَبَهُ صَاحِبُ الزَّيْتِ بِمَالِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَدَادَهُ . . .
فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى الْوَالِيِّ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ حَتَّى يُسَدَّدَ مَا عَلَيْهِ .

فَلَمَّا صَارَ فِي السَّجْنِ وَطَالَ مُكُونُهُ^(٢) فِيهِ، أَشْفَقَ عَلَيْهِ السَّجَّانُ إِسْمَا
عَلِمَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَمَا رَأَى مِنْ شِدَّةِ وَرَعِهِ وَطُولِ عِبَادَتِهِ، فَقَالَ لَهُ :
أَيُّهَا الشَّيْخُ، إِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ وَبِثْ مَعَهُمْ . . .
فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَعُدْ إِلَيَّ . . .

وَاسْتَمِرَّ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُطْلَقَ سَرَاحُكَ .
فَقَالَ لَهُ : لَا، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ . . .

فَقَالَ السَّجَّانُ : وَلِمَ، هَذَاكَ اللَّهُ ؟

فَقَالَ لَهُ : حَتَّى لَا أَعَاوِنَكَ عَلَى خِيَانَةِ وِلِيِّ الْأَمْرِ . . .

وَلَمَّا اخْتُصِرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْصَى بِأَنْ يَغْسَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ
سِيرِينَ وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مَا يَزَالُ سَجِينًا .

(١) بالعيب : بسبب العيب ، والرُّدُّ بسبب العيب من حقوق المشتري .

(٢) مكث : إقامته .

فقلت : يا أبا عبد الله ، ما صنَع بِكَ رَبُّكَ ؟

فقال : أَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ .

قلتُ : ثُمَّ ماذا ؟

قال : ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى أَصْحَابِ الْيَمِينِ .

قلتُ : ثُمَّ ماذا ؟

قال : ثُمَّ رُفِعْتُ إِلَى الْمُقَرَّبِينَ (١) .

قلت : فَمَنْ رَأَيْتَ هُنَاكَ ؟

قال : الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ وَمُحَمَّدَ بْنَ سِيرِينَ (*) . . .

(١) المقربون : السابقون .

(*) للاستزادة من أخبار محمد بن سيرين انظر :

- ١ - الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣٥٨/٣ ، ٣٣٣/٤ و ٢٧/٦ و ١١/٧ ، ١٩ ، ١٥٤ ، و ٢٤٦/٨ وغيرهما من الصفحات (انظر المجلد الخاص بالفهارس) .
- ٢ - صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢٤١/٣ - ٢٤٨ .
- ٣ - حلية الأولياء للأصفهاني : ٢٦٣/٢ - ٢٨٢ .
- ٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣٣١/٥ .
- ٥ - شلرات الذهب : ١٣٨/١ - ١٣٩ .
- ٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان : ٣٢١/٣ - ٣٢٢ .
- ٧ - كتاب الوفيات لأحمد بن حسن بن علي بن الخطيب : ١٠٩ .
- ٨ - الوافي بالوفيات للصفدي : ١٤٦/٣ .
- ٩ - طبقات الحفاظ : ٩/٣ .

فلقد عَزَمَ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِفَتْحِ سِجِسْتَانَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَصْقَاعِ (١)
عَلَى أَنْ يَخْتِمَ حَيَاتَهُ الْحَافِلَةَ بِعُبُورِ نَهْرِ سِيحُونَ (٢) وَرَفْعِ رَايَاتِ التَّوْحِيدِ
فَوْقَ ذُرَا (٣) تِلْكَ الْأَصْقَاعِ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى بِلَادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ .

* * *

أَعَدَّ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ لِلْمَعْرَكَةِ الْمَوْعُودَةِ عُدَّتَهَا، وَاتَّخَذَ لَهَا أَهْبَتَهَا . . .
وَفَرَّضَ عَلَى عَدُوِّهِ زَمَانَهَا وَمَكَانَهَا فَرَضًا . . .
وَلَمَّا نَسِبَ (٤) الْقِتَالَ أَبْلَسَى فِيهِ الرَّبِيعُ وَجُنْدَهُ السِّمَّاوِيرُ بِلَاءَ مَا يَزَالُ
يَذْكُرُهُ التَّارِيخُ بِلسَانِ نَدِيٍّ بِالْحَمْدِ رَطِيبٍ بِالْإِكْبَارِ .
وَأَظْهَرَ غُلَامُهُ فَرُوحَ فِي سَاحَاتِ الْوَعَى (٥) مِنْ ضَرْوِبِ الْبَسَالَةِ وَصُنُوفِ
الْإِقْدَامِ مَا زَادَ الرَّبِيعَ إِعْجَابًا بِهِ، وَإِكْبَارًا لَهُ، وَتَقْدِيرًا لِمَزَابَاهِ .
وَأَنْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ نَصْرِ مُؤَزَّرٍ (٦) لِلْمُسْلِمِينَ .
فَرَزَقُوا أَقْدَامَ عَدُوِّهِمْ، وَمَرَقُوا صُفُوفَهُ، وَفَرَقُوا جُمُوعَهُ . . .
ثُمَّ عَبَّرُوا النَّهْرَ الَّذِي كَانَ يَحُولُ دُونَهُمْ وَدُونَ الْأَنْسِيَاخِ (٧) فِي بِلَادِ
التُّرْكِ .

(١) الأصقاع : جمع صقيع بضم الصاد : الناحية من الأرض .

(٢) نهر سيحون : نهر كبير بعد سمرقند في حدود تركستان .

(٣) الذُّرَا : القمم وذروة كل شيء أعلاه .

(٤) نسب القتال : ثار القتال .

(٥) ساحات الوعى : ساحات الحرب .

(٦) نصر مؤزر : نصر قوي شديد .

(٧) الانسياخ في الأرض : الذهاب فيها في كل اتجاه .

أَمَّا الْفَتَى الْبَاسِلُ الشُّجَاعُ فَرُوْحٌ فَقَدْ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ يَحْمِلُ
مَعَهُ سَهْمَهُ الْكَبِيرَ مِنَ الْغَنَائِمِ . . .

وَالْهَبَّةَ السَّخِيَّةَ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ قَائِدُهُ الْعَظِيمُ . . .

وَيَحْمِلُ فَوْقَ ذَلِكَ حُرِّيَّتَهُ الْغَالِيَةَ . . .

وَذِكْرِيَاتِهِ الْغَنِيَّةَ بِرَوَائِعِ الْبَطُولَاتِ . . .

الْمُكَلَّلَةَ^(١) بِغُبَارِ الْوَقَائِعِ . . .

كَانَ فَرُوْحٌ حِينَ هَبَطَ مَدِينَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَابًا مَوْفُورَ الشَّبَابِ، دَفَاقَ
الْحَيَوِيَّةِ، مَمْتَلِكًا قُوَّةً وَفَرُوسِيَّةً . . .

وَكَانَ يَخْطُو نَحْوَ الثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهِ . . .

وَقَدْ عَزَمَ فَرُوْحٌ عَلَى أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَنْزِلًا يَسْتَقِرُّ فِيهِ، وَزَوْجَةً يَسْكُنُ
إِلَيْهَا .

فَابْتَاعَ دَارًا مِنْ أَوْسَطِ دُورِ الْمَدِينَةِ .

وَاخْتَارَ امْرَأَةً رَاجِحَةَ الْعَقْلِ، كَامِلَةَ الْفَضْلِ، صَحِيحَةَ الدِّينِ، تُقَارِبُهُ فِي
السِّنِّ وَاقْتَرَنَ بِهَا .

* * *

نَحِمَ فَرُوْحٌ بِدَارِهِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا .

وَنَفِيَّ لِي مَسْخِيَّةَ زَوْجَتِهِ مِنْ هِنَاءِ الْحَيْشِ وَطَيْبِ الْعِشْرَةِ وَنَضَارَةِ الْحَيَاةِ فَوْقَ
مَا كَانَ يَرْجُو وَيَأْمَلُ .

(١) الْمُكَلَّلَةُ : الْمُنَوَّرَةُ .

فَقَالَتْ لَهُ :

يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، لِمَنْ تَتْرُكُنِي وَتَتْرُكُ هَذَا الْجَنِينَ^(١) الَّذِي أَحْمِلُهُ
بَيْنَ جَوَانِحِي؟

فَأَنْتَ رَجُلٌ غَرِيبٌ عَنِ الْمَدِينَةِ، لَا أَهْلَ لَكَ فِيهَا وَلَا عَشِيرَةَ .

فَقَالَ : أَتْرُكُكَ لِلَّهِ .

ثُمَّ إِنِّي خَلَفْتُ لَكَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ جَمَعْتُهَا مِنْ غَنَائِمِ الْحَرْبِ . . .
فَصُونِيهَا، وَتَمْرِيهَا^(٢)، وَأَنْفِقِي مِنْهَا عَلَيَّ نَفْسِكَ وَوَلِيدِكَ بِالسَّمْعُورِيِّ حَتَّى
أَعُودَ إِلَيْكَ سَالِمًا غَانِمًا . . .

أَوْ يَرْزُقَنِي اللَّهُ الشَّهَادَةَ الَّتِي أَمَنَّاهَا . . .

ثُمَّ وَدَّعَهَا وَمَضَى إِلَى غَايَتِهِ . . .

* * *

وَضَعَتِ السَّيِّدَةُ الرَّزَانَ^(٣) حَمْلَهَا بَعْدَ رَحِيلِ زَوْجِهَا بِيَضْعَةِ أَشْهُرٍ .
فَإِذَا هُوَ غَلَامٌ مُشْرِقُ الْوَجْهِ حُلُوُ الْقَسَمَاتِ رَائِعُ الْمُجْتَلَسِيِّ^(٤)، فَفَرِحَتْ
بِهِ فَرَحًا عَظِيمًا كَادَ يُنْسِيهَا فِرَاقَ أَبِيهِ . . .
وَأَطْلَقَتْ عَلَيْهِ اسْمَ رَبِيعَةَ .

* * *

(١) الجنين : الولد ما دام في رحم أمه .

(٢) تَمْرِيهَا : كَثْرِيهَا بِالتَّجَارَةِ وَنَحْوِهَا .

(٣) المرأة الرزان : المرأة الحكيمة العاقلة .

(٤) رائع المجتل : يروع عين رائيته .

لكنَّ فَرُوحًا طَالَتْ غَيْبُهُ .

ثم تَضَارَبَتِ الأَقْوَالُ فِيهِ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الأَعْدَاءِ .

وقال آخرون : إِنَّهُ مَا زَالَ طَلِيقًا يُوَاصِلُ الجِهَادَ .

وقال فَرِيقٌ ثَالِثٌ عَائِدٌ مِنْ سَاحَاتِ القِتَالِ : إِنَّهُ نَالَ الشَّهَادَةَ الَّتِي

تَمَنَّاها .

فَتَرَجَّحَ هَذَا القَوْلُ الأَخِيرُ عِنْدَ أُمَّ رُبَيْعَةَ لِانْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ فَحَزِنَتْ عَلَيْهِ

حُزْنًا أَمْضً^(١) فَوَادَهَا . . .

ثُمَّ احْتَسَبَتْهُ^(٢) عِنْدَ اللهِ . . .

* * *

كَانَ رُبَيْعَةُ يَوْمئِذٍ قَدْ أَيْفَعُ^(٣) وَكَادَ يَدْخُلُ فِي مَدَاخِلِ الشَّبَابِ .

فَقَالَ النَّاصِحُونَ لِأُمِّهِ :

هَا هُوَذَا رُبَيْعَةُ قَدْ اسْتَكْمَلَتْ مَا يَنْبَغِي لِفَتَى مِثْلِهِ أَنْ يَسْتَكْمِلَهُ مِنَ القِرَاءَةِ

وَالكِتَابَةِ .

وَرَادَ عَلَى أَقْرَانِهِ^(٤) فَحَفِظَ القُرْآنَ وَرَوَى الحَدِيثَ .

(١) أَمْضً فَوَادَهَا : أَحْزَنَهُ وَأَوْجَعَهُ .

(٢) احْتَسَبَتْهُ عِنْدَ اللهِ : طَلَبَتْ أَجْرَهَا عَلَيْهِ مِنَ اللهِ .

(٣) أَيْفَعُ : قَارِبُ البُلُوغِ .

(٤) أَقْرَانِهِ : نَظْرَانِهِ وَأَمْثَالِهِ .

فإذا كَلَّمَهُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَدَعَاهُ إِلَى الرَّفْقِ بِنَفْسِهِ قَالَ :

سَمِعْنَا أَشْيَاخَنَا يَقُولُونَ :

« إِنَّ الْعِلْمَ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ إِلَّا إِذَا أُعْطِيَتْهُ نَفْسُكَ كُلَّهَا » . . .
ثُمَّ مَا لَيْتَ^(١) كَثِيرًا حَتَّى ارْتَفَعَ ذِكْرُهُ، وَبَزَغَ نَجْمُهُ، وَكَثُرَ إِخْوَانُهُ .
وَأُولَعَ بِهِ تَلَامِيذُهُ، وَسَوَّدَهُ^(٢) قَوْمُهُ .

وَلَقَدْ سَارَتْ حَيَاةُ عَالِمِ الْمَدِينَةِ هَادِئَةً وَادِعَةً . . .

فَشَطَّرَ مِنْ يَوْمِهِ فِي دَارِهِ لِأَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ . . .

وَأَخَّرَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَحَلَقَاتِهِ . . .

وَلَقَدْ مَضَتْ حَيَاتُهُ مُتَشَابِهَةً حَتَّى وَقَعَ فِيهَا مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ . . .

(ب)

فِي ذَاتِ عَشِيَّةٍ مِنْ عَشِيَّاتِ الصَّيْفِ الْمُقْمِرَةِ بَلَغَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ
فَارِسٌ فِي أَوَاخِرِ الْعَقْدِ السَّادِسِ مِنْ عُمُرِهِ .

وَمَضَى فِي أَرْقَاتِهَا رَاكِبًا جَوَادَهُ قَاصِدًا دَارَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي إِنْ كَانَتْ دَارُهُ مَا
تَرَائِلَ قَائِمَةً عَلَى عَهْدِهِ بِهَا أَمْ إِنْ الْأَيَّامَ قَدْ فَعَلَتْ بِهَا فِعْلَهَا . . .

فَلَقَدْ مَضَى عَلَى غِيَابِهِ عَنْهَا ثَلَاثُونَ عَامًا أَوْ نَحْوًا^(٣) مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ عَنْ زَوْجَتِهِ الشَّابَّةِ الَّتِي خَلَّفَهَا فِي تِلْكَ الدَّارِ مَا فَعَلَتْ؟

(١) ما لبت : ما أبطأ .

(٢) سَوَّدَهُ قَوْمُهُ : جعلوه سيِّداً عليهم .

(٣) نحواً من ذلك : قريباً من ذلك .

وَأَلْفَى^(١) بِأَبِهَا مَشْقُورًا فَأَعْبَسَتْهُ الْفَرْحَةَ عَنِ الْاسْتِظْلَانِ حَلِي أَثْلَاهَا . . .

وَوَجَّحَ مِنَ الْبَابِ وَأَوْعَلَ فِي صَحِي الدَّارِ . . .

سَمِعَ رَبُّ الدَّارِ صَرِيرَ الْبَابِ فَأَطَّلَ مِنْ عَلِيَّتِهِ^(٢) فَرَأَى فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ
رَجُلًا مُتَوَشِّحًا سَيْفَهُ مُتَقَلِّدًا رُمَحَهُ يَفْتَحِمُ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ دَارَهُ .

وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ الشَّابَّةُ تَقْفُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ مَرْمَى بَصَرِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ .

فَهَبَّ مُغْضَبًا وَنَزَلَ إِلَيْهِ حَافِيًا وَهُوَ يَقُولُ :

أَتَسْتَرُّ بِجُنْحِ اللَّيْلِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَتَفْتَحِمُ مَنْزِلِي، وَتَهْجِمُ عَلَيَّ

حريمي؟! .

وَأَنْدَفَعَ نَحْوَهُ كَمَا يَنْدَفِعُ الْأَسَدُ الضَّارِي إِذَا أُرِيدَ عَرِيئُهُ^(٣) بِسُوءٍ . . .

وَلَمْ يَدْعُ لَهُ فُرْصَةً لِلْكَلامِ . . .

وَتَوَاتَبَ كُلُّ مِنَ الرَّجُلَيْنِ عَلَى صَاحِبِهِ، وَعَلَتْ جَلْبَتُهُمَا^(٤) وَارْتَفَعَ

صُجْبُهُمَا وَتَدَفَّقَ الْجِيرَانُ عَلَى الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ .

فَأَحَاطُوا بِالرَّجُلِ الْغَرِيبِ إِحَاطَةَ الْغُلِّ^(٥) بِالْعُنُقِ وَأَعَانُوا جَارَهُمْ عَلَيْهِ . . .

فَأَمْسَكَ بِهِ صَاحِبُ الدَّارِ وَأَحْكَمَ قَبْضَتَهُ عَلَى خِنَاقِهِ^(٦) وَقَالَ :

(١) أَلْفَى : وَجَدَ .

(٢) الْعَلِيَّةُ : بَيْتٌ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الدَّارِ .

(٣) الْعَرِيَّةُ : بَيْتُ الْأَسَدِ .

(٤) جَلْبَتُهُمَا : ضَوْؤُهُمَا .

(٥) الْغُلُّ : طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ يَجْعَلُ فِي الْعُنُقِ أَوْ الْيَدِ وَجَعَهُ أَغْلالٌ .

(٦) خِنَاقُهُ : رَقِيَّتُهُ .

دَعُهُ يَا رَبِيعَةُ . . .
دَعُهُ يَا وَلَدِي . . . إِنَّهُ أَبُوك . . .
انصَرِفُوا عَنْهُ يَا قَوْمُ، بَارِكْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .
حَذَارِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ . . .
إِنَّ هَذَا الَّذِي تَتَصَدَّى لَهُ وَلَدُكَ وَفِلْدَةٌ^(١) كِيدِكَ .
فَمَا كَادَتْ كَلِمَاتُهَا تُلَامِسُ الْأَذَانَ حَتَّى أَقْبَلَ فَرُوحٌ عَلَى رَبِيعَةَ وَجَعَلَ
يَضُمُّهُ وَيُعَانِقُهُ . . .
وَأَقْبَلَ رَبِيعَةَ عَلَى فَرُوحٍ وَطَفِقَ يُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَعُنُقَهُ وَرَأْسَهُ . . .
وَانْفَضَّ عَنْهُمَا النَّاسُ . . .
وَنَرَكْتَ أُمَّ رَبِيعَةَ تُسَلِّمُ عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي مَا كَانَتْ تَنْظُنُّ ظَنًّا أَنَّهَا سَتَلْقَاهُ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ بَعْدَ أَنْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ مَدَّةً تُقَارِبُ ثُلُثَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ .
جَلَسَ فَرُوحٌ إِلَى زَوْجَتِهِ، وَطَفِقَ يُحَدِّثُهَا عَنْ أَحْوَالِهِ . . .
وَيُكْشِفُ لَهَا عَنْ أَسْبَابِ انْقِطَاعِ أَخْبَارِهِ . . .
وَلَكِنَّهَا كَانَتْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَقُولُ .
فَلَقَدْ نَغَّصَ^(٢) عَلَيْهَا فَرَحَتَهَا بِلِقَائِهِ وَاجْتِنَاعِ شَمْلِهِ بِوَلَدِهِ خَوْفُهَا مِنْ
غَضَبِهِ عَلَى إِضَاعَةِ كُلِّ مَا أُوْدِعَهُ لَدَيْهَا مِنْ مَالٍ . . .
كَانَتْ تَقُولُ فِي نَفْسِهَا :

(١) فلذة كيدك : قطعة كيدك .

(٢) نغَّص : كدَّر .

فَقَالَتْ :

لَقَدْ وَضَعْتُهُ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يُوَضَعَ .
وَسَأَخْرِجُهُ لَكَ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
وَقَطَعَ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ عَلَيْهِمَا الْحَدِيثَ .
فَهَبَّ فَرُوحٌ إِلَى إِبْرِيْقِهِ فَتَوَضَّأَ .
ثُمَّ مَضَى مُسْرِعًا نَحْوَ الْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ :
أَيْنَ رَبِيعَةٌ ؟

فَقَالُوا :

سَبَقَكَ إِلَى الْمَسْجِدِ مُنْذُ النَّدَاءِ الْأَوَّلِ .
وَلَا نَحْسَبُ أَنَّكَ تُذَرِّكُ الْجَمَاعَةَ .

* * *

بَلَغَ فَرُوحُ الْمَسْجِدَ فَوَجَدَ أَنَّ الْإِمَامَ قَدْ فَرَغَ وَشَيْكًا مِنَ الصَّلَاةِ فَأَدَّى
الْمَكْتُوبَةَ .

ثُمَّ مَضَى نَحْوَ الضَّرْبِيعِ الشَّرِيفِ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ انْتَهَى نَحْوَ الرَّوْضَةِ ^(١) الْمُطَهَّرَةِ، فَقَدْ كَانَتْ فِي فَوَادِهِ أَشْوَاقٌ إِلَيْهَا
وَخَبْنٌ إِلَى الصَّلَاةِ فِيهَا .

(١) الروضة : ما بين قبر الرسول ومنبره .

وحاول فروخ أن يتبين صورة الشيخ فلم يفلح لموقعه منه، وبعده

عنه .

لقد راعه منه بيانه المشرق، وعلمه المتدفق، وحافظته العجيبة .

وأدهشه خضوع الناس بين يديه .

وما هو إلا قليل حتى ختم الشيخ مجلسه ونهض واقفا .

فهب الناس متجهين نحوه، وتزاحموا عليه، وأحاطوا به، واندفعوا وراءه

يشيئونه^(١) إلى خارج المسجد .

وهنا التقت فروخ إلى رجل كان يجلس بجانبه وقال :

قل لي - برّبك - من الشيخ ؟

فقال الرجل باستغراب :

أو لست من أهل المدينة ؟

فقال فروخ :

بلى .

فقال الرجل :

وهل في المدينة رجل واحد لا يعرف الشيخ ؟!

فقال فروخ :

اعذّرني إذا كنت لا أعرفه .

(١) يشيئونه : يودعونه .

فما عَرَفَ أهلَ المدينةِ أحداً أَوْفَرَ منه جُوداً لِصَدِيقٍ وابنِ صَدِيقٍ . . .
ولا أَرْهَدَ منه في مَتَاعِ الدنيا ولا أَرْغَبَ منه بِها عندَ اللهِ .

فقال فروخ : ولكِنَّك لم تَذْكُرْ لِي اسمَهُ .

فقال الرَّجُلُ : إِنَّه ربيعةُ الرَّأيِ .

فقال فروخ : رَبِيعَةُ الرَّأيِ !!

فقال الرَّجُلُ : نعم ، إنَّ اسمَهُ رَبِيعَةُ . . .

لَكِنَّ علماءَ المدينةِ وشيوخَهَا دَعَوْهُ ربيعةَ الرَّأيِ لأنَّهُم كانوا إذا لم
يَجِدُوا لِقضيةٍ نَصًّا في كتابِ اللهِ أو حديثِ رسولِ اللهِ ، لجؤوا إليه . . .

فَبَجَّهْتُ في الأمرِ . . .

وَيَقِيسُ ما لم يَرِدْ فيه نَصٌّ على ما وَرَدَ فيه نَصٌّ . . .

وَيَأْتِيهِمُ بِالْحُكْمِ فيما أَشْكَلَ عليهم على وَجْهِ تَرْكُنٍ^(١) إليه التُّقُوسُ
وَتَطْمَئِنُّ له القُلُوبُ .

فقال فروخ في لهفة :

ولَكِنَّك لم تَنسِبْه لي . . .

فقال الرجل :

إنَّه ربيعةُ بنُ فروخِ المُكَنِّي بأبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ . . .

لقد وُلِدَ بَعْدَ أنْ غادَرَ أبوه المدينةَ مجاهداً في سبيلِ اللهِ . . . فتولَّتْ
أُمُّه تَرْبِيَتَهُ وتَنشِئَتَهُ . . .

(١) تركزن إليه : ترتاح إليه وتطمئن .

فقال : نعم ...

وَجُرِّبَتْ عَنِّي وَعَنْهُ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ (*) ...

(*) للاستزادة من أخبار ربيعة الرأي انظر :

- ١ - تذكرة الحفاظ : ١٤٨/١ .
- ٢ - حلية الأولياء : ٢٥٩/٣ .
- ٣ - صفوة الصفوة : ٨٣/٢ .
- ٤ - ذيل الحمذيل : ١٠١ .
- ٥ - تاريخ بغداد : ٤٢٠/٨ .
- ٦ - ميزان الاعتدال : ١٣٦/١ .
- ٧ - التاج : ١٤١/١٠ .
- ٨ - وفيات الأعيان : ١٣٨/١ .
- ٩ - تاريخ الطبري : انظر الفهارس في العاشر .

وُلِدَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ فِي بَيْسَانَ مِنْ أَرْضِ فَلَسْطِينَ . . .
وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي أَوَاخِرِ خِلَافَةِ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ . . .
وَكَانَ يَنْتَمِي إِلَى قَبِيلَةِ كِنْدَةَ الْعَرَبِيَّةِ .
وَعَلَى هَذَا فَرَجَاءُ فَلَسْطِينِيُّ الْوَطَنِ .
عَرَبِيٌّ الْأُرُومَةِ^(١) .
كِنْدِيُّ الْعَشِيرَةِ .

* * *

وَقَدْ نَشَأَ الْفَتَى الْكِنْدِيُّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مُنْذُ حَدَاثَةِ سِنِّهِ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِ
خَلْقِهِ .

وَأَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ^(٢) .
فَوَجَدَ الْعِلْمَ فَوَادَهُ غَضًّا طَرِيًّا خَالِيًّا فَتَمَكَّنَ مِنْهُ وَاسْتَقَرَّ فِيهِ .
وَجَعَلَ هَمَّهُ الْأَكْبَرَ التَّضَلُّعَ^(٣) مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَالتَّرْوُدَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ
اللَّهِ .

فَاسْتَضَاءَ فِكْرَهُ بِنُورِ الْقُرْآنِ . . .
وَاسْتَنَارَتْ بِصِيرَتِهِ بِهَدْيِ النُّبُوَّةِ .

(١) الأرومة : الأصل .

(٢) نُعُومَةُ أَظْفَارِهِ : كِتَابَةٌ عَنْ صِغْرِ سِنِّهِ .

(٣) التَّضَلُّعُ : يُقَالُ تَضَلَّعَ مِنَ الْعِلْمِ أَيُّ شَبَّحَ مِنْهُ وَرَوَى .

وقد أدناه من قلوبِ خلفاءِ بني أمية رِجَاحَةً في رأيه . . .

وَصِدْقٌ في لَهَجَتِهِ . . .

وإِخْلَاصٌ في نِيَّتِهِ . . .

وِحِكْمَةٌ في مُعَالَجَتِهِ الأُمُورَ . . .

ثُمَّ تَوَجَّ ذَلِكَ كُلُّهُ بِرُؤْيُودِهِ بِمَا في أَيْدِيهِمْ من عَرَضِ الدُّنْيَا مِمَّا كان
يَتْرَاحِمُ عَلَيْهِ المُتْرَاحِمُونَ .

* * *

وقد كان اتِّصالُهُ بخلفاءِ بني أمية من عَظِيمِ رَحْمَةِ اللهِ بِهِمْ وَجَزِيلِ
إِكْرَامِهِ لَهُمْ .

فلقد دَعَاهُمْ إلى الخَيْرِ ودَلَّهُمْ على طُرُقِهِ .

وثَنَاهُمْ^(١) عن الشَّرِّ وأَوْصَدَ دُونَهُمْ أبوابَهُ . . .

وأَرَاهِمُ الحَقَّ وَزَيَّنَ لَهُمُ اتِّبَاعَهُ . . .

وَبَصَّرَهُمُ بِالْبَاطِلِ وَكَرَّهُ إِلَيْهِمْ إِتِّبَانَهُ . . .

فَنَصَحَ اللهُ وَرَسُولَهُ ولِأُمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ .

ولقد وَقَعَتْ لِرِجَاءِ قِصَّةِ أَنْارَتْ لَهُ طَرِيقَهُ في مَخَالَطَةِ الخُلَفَاءِ، وَحَدَّدَتْ

لَهُ مُهِمَّتَهُ مَعَهُمْ رَوَاهَا بِنَفْسِهِ فَقَالَ :

(١) ثَنَاهُمْ عن الشر : صرَّفَهُمْ عن الشر .

وفيما كنتُ أتأملُ كلامه وأترقبُ أن يزيدني منه، نادى الخليفةُ
قائلاً :

أين رجاءُ بنُ حيوةَ ؟

فانعطفتُ ^(١) نحوهُ وقلت :

ها أناذا يا أميرَ المؤمنين .

فسألني عن شيءٍ، فما كدتُ أفرغُ من جوابه حتى التفتُ إلى صاحبي
فلم أجده . . .

فتفضتُ المكانَ عنه نفضاً ^(٢)؛ فلم أقعُ له على أثرٍ بينَ الناسِ . . .

* * *

ولقد كانت لرجاء بن حيوة مع خلفاء بني أمية مواقفٌ صدق ما زال
يكنها ^(٣) التاريخ في أزهى صفحاته وبسروها الخلف عن السلف .

من ذلك أنه كان ذات يومٍ في مجلس عبد الملك بن مروان فوصف
للخليفة رجلٌ بسوء طويته على بني أمية، وقيل له :

إنه يشايح ابن الزبير ^(٤)، ويتصيرُ له . وذكر الواشي له من أفعاله
وأقواله ما أثار حفيظته ^(٥) فقال :

(١) انعطفت : ملت .

(٢) نفضت المكان عنه : تحريت المكان بحثاً عنه .

(٣) يكنها : يحفظها .

(٤) ابن الزبير هو عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان على الخلافة .

(٥) الحفيظة : الغضب .

إذ كان قد عَقَدَ العَزْمَ عَلَى تَوْسِيعَتِهِ حَتَّى يَكُونَ مَائَتِي ذِرَاعٍ فِي مَائَتِي ذِرَاعٍ .

فَأُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ المَسْجِدِ لِتَمَكُّنِ الخَلِيفَةَ مِنْ تَأْمَلِهِ .
وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ غَيْرُ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ ، إِذْ لَمْ يَجْرُؤُ الحَرَّشُ عَلَى إِخْرَاجِهِ .

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ وَالِيًا عَلَى المَدِينَةِ - رِسْوَلًا يَقُولُ لَهُ :

لَوْ خَرَجْتَ مِنَ المَسْجِدِ كَمَا خَرَجَ النَّاسُ .
فَقَالَ :

لَا أُعَادِرُ المَسْجِدَ إِلَّا فِي الوَقْتِ الَّذِي اعْتَدْتُ أَنْ أُعَادِرَهُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ .
فَقِيلَ لَهُ :

لَوْ قُئِمْتَ فَسَلَّمْتَ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ .
فَقَالَ :

إِنَّمَا جِئْتُ إِلَى هُنَا لِأَقُومَ لِرَبِّ العَالَمِينَ .
فَلَمَّا عَرَفَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ مَا دَارَ بَيْنَ رُسُولِهِ وَسَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ جَعَلَ يَعْدِلُ^(١) بِالخَلِيفَةَ عَنِ المَكَانِ الَّذِي فِيهِ سَعِيدٌ . . .
وَأَخَذَ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ يُشَاغِلُهُ بِالكَلَامِ ، لِمَا كَانَا يَعْلَمَانِ مِنْ شِدَّةِ عُنْفُوَانِ^(٢) الخَلِيفَةَ .

(١) جعل يعدل بالخليفة : أخذ يميل بالخليفة ويبيعه .

(٢) العنقوان : الشدة .

هذا بَقِيَّةُ سَلَفِ هذه الأُمَّة . . .

* * *

ولما أَفْضَتْ^(١) الخِلافةُ إِلَى سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ كان لِرِجاءِ بنِ حَيوَةَ عِنْدَهُ شَأْنٌ^(٢) يَفوقُ شَأْنَهُ عِنْدَ سَابِقِيهِ .

فقد كان سليمانُ عَظِيمَ الثَّقَةِ بِهِ، شَدِيدَ العِتمادِ عَلَيْهِ، حَرِيصًا على أَنْ يَأْخُذَ بِرَأْيِهِ في صَغِيرِ الأُمُورِ وكَبِيرِها . . .

ومواقِفُ رِجاءِ بنِ حَيوَةَ مع سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ كَثيرةٌ مُثيرةٌ .
بَيِّدُ^(٣) أَنَّ أَكْبَرها شَأْنًا وَأَعْظَمها عَلى الإِسلامِ والمُسلِمِينَ خَطَرًا مَوْقِفُهُ
مِنَ أَمْرِ وِلايَةِ العَهْدِ، وَأَثَرُهُ في البَيْعَةِ لِعَمَرَ بنِ عَبْدِ العَزيزِ .

* * *

حَدَّثَ رِجاءُ بنُ حَيوَةَ قال :

لما كان أولُ يومِ جُمُعَةٍ من شَهِرِ صَفَرِ سَنَةِ تِسْعِ وَتِسْعِينَ كُنَّا مع أَمِيرِ
المُؤمِنِينَ سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ بِدَابِقِ^(٤) .

وكان قد أرسَلَ جِيشًا لَجِبًا^(٥) إِلَى القُسْطَنْطِينِيَّةِ بِقيادةِ أَخِيهِ
مَسْلَمَةَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ، ومعه ابنُهُ داوُدُ، وطائِفَةٌ كَبيرةٌ من آلِ بَيْتِهِ .

(١) أَفْضَتْ الخِلافةَ إلى فلان : أَلت إليه وصارت له .

(٢) الشَأْنُ : ما عَظُمَ مِنَ الأُمُورِ والأَحْوالِ .

(٣) بَيِّدُ أَنْ : غَيَّرَ أَنَّ .

(٤) دَابِقُ : قَريةٌ قَرِبَ حَلبِ في سوريَةِ كان يَنْزِلُها بنو أُمَيَّةٍ إذا غَزَوْا بِلادِ الرُومِ وبِها قَبْرُ سُلَيْمَانَ بنِ عَبْدِ المَلِكِ .

(٥) جِيشًا لَجِبًا : جِيشًا كَبيرًا ذا جَلْبَةِ .

وإن ابنتك أيوب غلام لم يبلغ الحلم بعد، ولم يتبين لك صلاحه من
طلاحه^(١) . . .

فترجع وقال : إنه كتاب كتبه . . .

وأنا أريد أن استخير الله فيه . . .

ولم أعزم عليه . . .

ثم مزق الكتاب . . .

ومكث بعد ذلك يوماً أو يومين ثم دعاني وقال :

ما رأيك في ولدي داود يا أبا المقدم ؟

فقلت :

هو غائب مع جيوش المسلمين في القسطنطينية . . .

وأنت لا تدري الآن أحي هو أم ميت ؟

فقال : فمن ترى إذن يارجاء ؟

فقلت : الرأي لك يا أمير المؤمنين . . .

وكنت أريد أن أنظر فيمن يذكُرهم لكي أستعيدهم واحداً واحداً، حتى

أصل إلى عمر بن عبد العزيز .

فقال : كيف ترى عمر بن عبد العزيز ؟

فقلت : ما علمته - والله - إلا فاضلاً ، كاملاً ، عاقلاً ، ديناً .

(١) الطلاح : قيد الصلاح .

قال رجاء :

فلما اجتمعوا قلت لهم :

هذا كتاب أمير المؤمنين قد عهد فيه للخليفة من بعده، وقد أمرني أن
أخذ منكم البيعة لمن ولأه فقالوا :

سمعاً لأمر أمير المؤمنين، وطاعة لخليفته من بعده. وطلبوا أن
استأذن لهم على أمير المؤمنين للسلام عليه .

فقلت : نعم .

فلما دخلوا عليه قال لهم :

إن هذا الكتاب الذي في يد رجاء بن حيوة هو كتابي، وفيه عهدي
للخليفة من بعدي، فاسمعوا وأطيعوا لمن وليت، وبايعوا لمن سميت في
هذا الكتاب .

فطفقوا يبايعون رجلاً رجلاً . . .

ثم خرجت بالكتاب مختوماً لا يعلم أحد من الخلق ما فيه غيري
وغير أمير المؤمنين .

فلما تفرق الناس جاءني عمر بن عبد العزيز فقال :

يا أبا المقدم .

إن أمير المؤمنين رجل حسن الظن بي ، وكان يولياني ^(١) من كريم بره
وصافي وداده الشيء الكثير .

(١) يولياني : يمنحني .

والله إني لعين^(١) أولاد عبد الملك . . .

ثم دخلت على سليمان بن عبد الملك فإذا هو يجودُ بروحه فجعلت إذا أخذته السكرُ من سكرات الموت أحرّفه نحو القبلة، فكان يقول لي وهو يشهُقُ :

لم يأن^(٢) ذلك بعدُ يا رجاء .

حتى فعلت ذلك مرّتين، فلما كانت الثالثة قال : الآن يارجاء . . . إن كنت تريد أن تفعل شيئاً فافعله . . .

أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .

فحرّفته نحو القبلة فما لبث أن أسلم روحه .

* * *

عند ذلك أغمضت عينيه، وسجّيته^(٣) بقطيفة خضراء، وأغلقت الباب عليه، وخرجت . فأرسلت إلى زوجته تسألني عنه، وتطلب أن تنظر إليه .

فشققت عنه الباب وقلت لرسولها :

انظر إليه لقد نام الساعة بعد سهرٍ طويلٍ فدعوه .

فرجع فأخبرها فقيلت ذلك، وأيقنت أنه نائم .

ثم أحكمت إغلاق الباب، وأجلست عنده حارساً أثق به وأوصيته

(١) عين أولاد عبد الملك : سيّد أولاد عبد الملك وأفضلهم .

(٢) لم يأن : لم يحن .

(٣) سجّيته : غطيته .

إِنَّ صَاحِبِكُمْ قَدْ مَاتَ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ
الْكِتَابَ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى ذِكْرِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ نَادَى هِشَامُ بْنُ عَبْدِ
الْمَلِكِ :

لَا تُبَايِعُهُ أَبَدًا . . .

فقلت : إِذْنُ - وَاللَّهِ أَضْرِبُ عُنُقَكَ . . .

فَمَنْ فَبَايِعْ . . .

فَقَامَ يَجْرُؤُ رِجْلَيْهِ . . . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عُمَرَ قَالَ :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (وَهُوَ يَسْتَرْجِعُ^(١) لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَى عُمَرَ
دُونَهُ وَدُونَ إِخْوَتِهِ مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ الْمَلِكِ) .

وَقَالَ عُمَرُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (وَكَانَ يَسْتَرْجِعُ لِمَصِيرِ الْخِلَافَةِ
إِلَيْهِ عَلَى كُرْهِهِ مِنْهُ) .

فَكَانَتْ بَيْعَةٌ جَدَّدَ اللَّهُ فِيهِ لِلْإِسْلَامِ شَبَابَهُ، وَرَفَعَ لِلدِّينِ مَنَارَهُ .

* * *

فَطُوبَى^(٢) لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ . . .

فَقَدْ أُبْرَأَ ذِمَّتَهُ أَمَامَ اللَّهِ بِتَوَلِّيهِ الرَّجُلَ الصَّالِحَ .

وَهَنِيئًا لَوْزِيرِ الصِّدْقِ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ . . .

(١) يسرّجع : يقول إنّ الله وإنّا إليه راجعون .

(٢) طوبى : الجنة والسعادة .

عامر بن شراحيل الشعبي

«كان الشعبي واسع العلم،
عظيم الجلم .. وأنه من الإسلام
بمكان ..»
«الحسن البصري»

لِسِتَّ سَنَوَاتٍ خَلَّتْ مِنْ خِلَافَةِ الْفَارُوقِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَوُلِدَ لِلْمُسْلِمِينَ
مَوْلُودٌ نَحِيلُ الْجِسْمِ ضَيْلٌ^(١) الْجِرْمِ .
ذَلِكَ لِأَنَّ أَخَاهُ رَاحِمَهُ عَلَى رَحِمِ أُمِّهِ فَلَمْ يَدَعْ لَهُ مَجَالًا لِلنُّمُوِّ لِكِنَّهِ لَمْ
يَسْتَطِعْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُرَاجِمَهُ لَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ فِي مَجَالَاتِ الْعِلْمِ وَالْجِلْمِ
وَالْحِفْظِ وَالْفَهْمِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ^(٢) .
ذَلِكَ هُوَ عَامِرُ بْنُ شُرَاحِيلَ الْجَمِيرِيِّ الْمَعْرُوفُ بِالشَّعْبِيِّ نَابِغَةُ
الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِهِ .

* * *

وَلِدَ الشَّعْبِيُّ فِي الْكُوفَةِ وَفِيهَا نَشَأَ .
لَكِنَّ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ كَانَتْ مَهْوَى^(٣) فَوَادِهِ وَمَطْمَحَ نَفْسِهِ ، فَكَانَ يُؤْمِنُهَا^(٤)

(١) ضيل الجرم : صغير الجسد .

(٢) العبقرية : قوة الإبداع .

(٣) مهوى فواده : مشتته نفسه .

(٤) يؤمها : يقصدها ويمضي إليها .

لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَافَرَ مِنْ أَقْصَى الشَّامِ إِلَى أَقْصَى الْيَمَنِ فَحَفِظَ كَلِمَةً وَاحِدَةً
تَنْفَعُهُ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ عُمْرِهِ لَرَأَيْتُ أَنَّ سَفَرَهُ لَمْ يَضِعْ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ :

أَقْلُ شَيْءٍ تَعَلَّمْتَهُ الشُّعْرُ

وَلَوْ سِتُّ لَأَنْشَدْتُكُمْ مِنْهُ شَهْرًا دُونَ أَنْ أُعِيدَ شَيْئًا مِمَّا أَنْشَدْتُهُ .

وَكَانَتْ تُعْقَدُ لَهُ حَلَقَةٌ فِي جَامِعِ الْكُوفَةِ، فَيَلْتَفُّ النَّاسُ حَوْلَهُ زُمْرًا زُمْرًا،
وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْيَاءُ يَرُوحُونَ وَيَغْدُونَ بَيْنَ أَظْهُرِ النَّاسِ .

بَلْ إِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ يَقْضُ عَلَى النَّاسِ
أَخْبَارَ الْمَغَازِي (١) بِخَفَايَاهَا وَدَقَائِقِهَا، فَأَرْهَفَ إِلَيْهِ سَمْعَهُ وَقَالَ :

لَقَدْ شَهِدْتُ بَعْضَ مَا يَقْضُهُ بَعْثِي وَسَمِعْتُهُ بِأُذُنِي، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ أَرْوَى (٢)
لَهُ مِنِّي .

وَشَوَاهِدُ سَعَةِ عِلْمِ الشَّعْبِيِّ وَحُضُورِ ذَهْنِهِ غَزِيرَةٌ وَفِيرَةٌ .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ :

أَتَانِي رَجُلَانِ يَتَفَاخِرَانِ، أَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ، وَالْآخَرُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَقَدْ
غَلَبَ الْعَامِرِيُّ صَاحِبَهُ وَعَلَا عَلَيْهِ وَأَخَذَهُ مِنْ نُؤْيِهِ وَجَعَلَ يَجْرُهُ نَحْوِي جَرًّا،
وَالْأَسَدِيُّ مُخَذُولٌ أَمَامَهُ يَقُولُ لَهُ :

دَعْنِي دَعْنِي .

(١) المغازي : الغزوات الإسلامية .

(٢) أروى مني : أحسن رواية مني

والثالثة : أن أول لواء عُقِدَ في الإسلام كان لرجلٍ منكم هو عبدُ الله بنُ جَحْشٍ (١)

والرابعة : أن أولَ مَغْنَمٍ قَسِمَ في الإسلام كان مَغْنَمَهُ .

والخامسةُ : أن أولَ من بايَعَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ (٢) كان مِنكُمْ . فقد جاء صاحبِكُمْ أبو سنانِ بنِ وهبٍ إلى رسولِ الله ﷺ وقال :

يا رسولَ الله ، ابسُطْ يَدَكَ أبايَعُكَ .

قال : عَلَيَّ ماذا ؟

قال : عَلَيَّ ما في نَفْسِكَ .

قال : وما في نَفْسِي ؟

قال : فَتُحُّ أو شَهَادَةٌ .

قال : نَعَمْ ، فبايَعَهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُبايِعُونَ عَلِيَّ بَيْعَةَ أَبِي سِنانِ .

والسَّادسةُ : أن قَوْمَكَ بني أَسَدٍ كانوا سُبُعَ المُهاجرين يومَ بَدْرٍ .

فَبِهَتْ العامِرِيُّ وَسَكَتَ .

ولا ريبَ في أنَّ الشعبيَّ أرادَ أن يَنْصُرَ الضَّعيفَ المَغْلُوبَ عَلَيَّ القَوِيَّ

الغالبُ .

ولو كان العامِرِيُّ هو المَخْذُولُ لَدَكَرَ لَهُ مِنْ مائِرِ قَوْمِهِ ما لَمْ يُحِطْ

به خُبْرًا .

* * *

(١) عبد الله بن جحش : صحابي من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ .

(٢) ببيعة الرضوان : كانت في آخر سنة ست للهجرة .

فلما أذن له بالرحيل قال له :

إذا رجعت إلى صاحبك (يعني عبد الملك بن مروان) وأبلغته جميع ما
يريد معرفته، فادفع إليه هذه الرقعة^(١) .

فلما عاد الشعبي إلى دمشق بادراً إلى لقاء عبد الملك، وأفضى إليه
بكل ما رآه وسمعه، وأجابته عن جميع ما سأله عنه .

ولما تمهض لينصرف قال :

يا أمير المؤمنين، إن ملك الروم حملني لك هذه الرقعة، ودفعها إلي
وانصرف .

فلما قرأها عبء الملك قال لغيلانه :

رُدوه عليّ فردوه، فقال له :

أعلمت ما في هذه الرقعة ؟

فقال : لا يا أمير المؤمنين .

فقال عبء الملك :

لقد كتب إلي ملك الروم يقول :

عجبت للعرب كيف ملكت عليها رجلاً غير هذا الفتى ؟

فبادره^(٢) الشعبي قائلاً :

(١) الرقعة : الخطاب والرسالة .

(٢) بادره : عاجله وأسرع إليه .

لَكِنَّ الشَّعْبِيَّ كَانَ - لِتَوَاضُعِهِ - يَخْجَلُ إِذَا خَلَعَ^(١) عَلَيْهِ أَحَدٌ لَقَبَ
(العالم) .

فَقَدْ خَاطَبَهُ أَحَدُهُمْ قَائِلًا : أَجْنِي أَيْهَا الْفَقِيهُ الْعَالِمُ .

فَقَالَ : وَيْحَكَ^(٢) . . .

لَا تُطْرِنَا^(٣) بِمَا لَيْسَ فِينَا

الْفَقِيهُ مِنْ تَوَرَّعٍ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَالْعَالِمُ مِنْ خَشْيِ اللَّهِ ، وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ

ذَلِكَ !؟ .

وَلَقَدْ سَأَلَهُ آخَرُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَأَجَابَ :

قَالَ فِيهَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَذَا

وَقَالَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَذَا

فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ :

وَأَنْتَ مَاذَا تَقُولُ يَا أَبَا عَمْرٍو ؟

فَابْتَسَمَ - فِي اسْتِحْيَاءٍ - وَقَالَ :

وَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتَ مَقَالََةَ عَمْرٍو وَعَلِيِّ .

* * *

(١) خلع عليه : ألقى عليه .

(٢) ويحك : ويح كلمة ترحم وترجع والمعنى : أترحم عليك وأتوجع لك .

(٣) لا تطرنا : لا تبالع في مدحتنا وإكبارنا

فقد رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَهُ أَقْبَحَ الشَّتْمِ، وَأَسْمَعَهُ أَقْدَعَ ^(١) الْكَلَامِ، فَلَمْ
يَزِدْ عَلَيَّ أَنْ قَالَ لَهُ :

إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَرْمِينِي بِهِ غَفَرَ اللَّهُ لِي :

وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ .

وَلَمْ يَكُنِ الشَّعْبِيُّ عَلَيَّ جَلَالَةَ قَدْرِهِ وَجِرَالَةَ ^(٢) فَضْلِهِ يَا نَفْسُ أَنْ يَاخُذَ
الْمَعْرِفَةَ أَوْ يَتَلَقِيَ الْحِكْمَةَ عَنْ أَهْوَنِ النَّاسِ شَأْنًا . . .

فَلَقَدْ دَابَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَيَّ حُضُورِ مَجَالِسِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَلُودُ ^(٣)
بِالضَّمِّ دَائِمًا، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ : أَلَا تَتَكَلَّمُ !؟

فَقَالَ :

أَسْكُتُ فَاسْلَمْ، وَأَسْمَعُ فَأَعْلَمْ . . .

وَإِنَّ حَظَّ الْمَرْءِ مِنْ أُذُنِهِ يَعُودُ عَلَيْهِ . . .

أَمَّا حَظُّهُ مِنْ لِسَانِهِ فَيَعُودُ عَلَيَّ غَيْرِهِ . . .

فَظَلَّ الشَّعْبِيُّ يُرَدِّدُ كَلِمَةَ الْأَعْرَابِيِّ مَا امْتَدَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ .

وَلَقَدْ أُوتِيَ الشَّعْبِيُّ مِنْ بِلَاغَةِ الْكَلَامِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فِيهِ مَا لَمْ يُؤْتَهُ إِلَّا
الْقَلَّةُ النَّادِرَةُ مِنَ الْفُصَحَاءِ الْأَبْنَاءِ . . .

(١) أقذع الكلام : أفضح الكلام .

(٢) جزالة فضله : سمو فضله وعظمة مقامه

(٣) يلود بالضمت : يعتصم به .

وما مات ذو قرابة لي وعليه دين إلا قضيتُه عنه .

* * *

وبعد فقد عُمَرَ الشَّعْبِيُّ حَتَّى نَيْفَ^(١) عَلَى الثَّمَانِينَ .

فَلَمَّا وَافَاهُ الْأَجَلَ وَنُعِيَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ :

يَرْحَمُهُ اللَّهُ فَلَقَدْ كَانَ وَاسِعَ الْعِلْمِ ...

عَظِيمَ الْجِلْمِ ...

وَأَنَّهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِمَكَانٍ .(*)

(١) نيف : زاد .

(*) للاستزادة من أخبار الشعبي انظر :

١ - الطبقات لابن سعد : ٢٤٧/٦ .

٢ - تاريخ بغداد : ٢٢٧١٢ .

٣ - تهذيب التهذيب : ٦٥/٥ .

٤ - حلية الأولياء : ٣١٠/٤ .

٥ - صفة الصفوة : ٧٥/٣ .

٦ - وفيات الأعيان : ١٢/٣ .

٧ - شرح المقامات للشريشي : ٢٤٥/٢ .

٨ - المعارف لابن قتيبة : ٤٤٩ .

٩ - التهذيب لابن عساکر : ١٣٨/٧ .

١٠ - سمط اللؤلؤ : ٧٥١ .